الدرس الثامن

الطب في الإسلام

تمهيد:

بخلاف الحقول العلمية الأخرى التي لم تنشأ إلا ابتداءً من أوائل القرن السابع الميلادي، بعد ترجمة المفكرين المسلمين للأعمال اليونانية والهندية، فإن الطب كان موجودا منذ مجيء الإسلام أي قبل منتصف القرن السابع الميلادي. و كان يُزاول من قبل الطوائف المسيحية والسريانية والفارسية التي كانت قد حافظت على تعليم هذه الصناعة بلغاتها الخاصة. ويُروى أن النبي (ص) كان له طبيب خاص، وهو "الحارث بن كلدة" الذي تلقى تكوينه في المدينة الفارسية جنديسابور، ونقله للمسلمين.

وفي هذا الدرس، سنتعرف على الطب الإسلامي من شكله التقلدي إلى ظهور ابن سينا.

1. الطب الإسلامي التقليدي

ابتغاءً للتدقيق، فإنه ينبغي لنا أن نقول إنه خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين، وُجد في الواقع نوعان من الممارسة الطبية جنبا إلى جنب. أما أولاهما، التي ننعتها هنا باسم "الطب التقليدي"، فكانت ممارسات طبية قام بها المسلمون لا تستمّد مهاراتها من الكتب بل تعتمد بالأحرى على الخبرة الموروثة عن الأجيال المتعاقبة، والتي تغذت من ملاحظة الأمراض، ومن المعرفة التجريبية بقوى النباتات والأغذية الخاصة بكل إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية الشاسعة التي نشأت حديثا. ويتألف هذا الطب" الشائع" الذي كان يمارسه الحجامون والعشابون والقابلات، بكل تأكيد، من معارف متفرقة ترتبط بالوسط الطبيعي الذي عاشت فيه مختلف المجموعات البشرية التي كان يُمارس لديها. لكن مزيته الأهم تتمثل في أنه كان متاحا لجميع السكان، و بالأخص للفقراء منهم. وعلاوة على العلاجات التي كان يقدمها للمرضى، كان يعنى بحفظ

الصحة من خلال وصايا تتعلق بالوقاية والحمية الغذائية . وقد إنضافت إلى هذه الجوانب الطبية الخالصة ممارسات من طبيعة سحرية لا علاقة لها بالعلم، لكن في وسعها، حين يكون المريض مصدقا بها، أن تتدخل كنوع من المصاحبة "النفسية" للعلاج بالأعشاب والأغذية.

وقد كان قسم من هذه الوصفات –تلك التي واءمت الوسط الطبيعي لبلاد العرب في القرن السابع الميلادي– شائعا في حياة النبي (ص) وبعد وفاته، بل قام أصحابه بجمع هذه الوصفات، و جعلت في الأخير بابا مستقلا في متن الحديث النبوي واسموها الطب النبوي. وبعد بضعة قرون، خُصّصت لها كتب من قبيل كتاب "الطب النبوي" لبن قيم الجوزية. والذي نجد فيه علاوة على الوصايا المتعلقة بالوقاية والحمية، نصائح تروم الحفاظ على صحة بدنية وعقلية جيدة، ووصفات للحماية من السموم، وشروح عن فضائل العلاقات، ونكتشف فيه أيضا بيانا لمختلف الوسائل الكفيلة بإبعاد العين السيئة، فضلا عن الأدعية المفترض فيها جلب الراحة أو السلوى للمريض.

أما النوع لثاني فيسمى "الطب العالم" وهو الطب المأخوذ من الكتب أو عن طريق التعليم، فإننا نلفيه سلفا في محيط الخلفاء الأمويين الأوائل الذين كانوا قد وظفوا أفاضل أطباء عصرهم. و لما كانت عاصمتهم هي دمشق، فقد كان الأطباء الذين حظوا بالمراكز الرفيعة من ذوي التكوين اليوناني أو السرياني. 1

و مع مجيء الخلافة العباسية، أعيد توزيع الأوراق، نوعا ما، إذ جاء دور الأطباء ذوي الأصول الفارسية الذين تعلموا الصناعة في جنديسابور. لكن الطب المعمول به، في كلتا الحالتين واحد، وهو الطب المستفاد من كتب أبقراط و جالينوس، إما مباشرة من الأصول اليونانية، و إما من الترجمات السريانية التي أنجزت خلال القرن السادس الميلادي. ثم إن كلتي الجماعتين الطبيتين استمرتا لفترة من الزمن، في تعليم طلابها باللغة التي تتقنها ابتغاء الحفاظ على احتكارها لمزاولة الطب. و لهذه الأسباب نفسها، لم تكن الترجمات الأولى للأعمال الطبية اليونانية عربية، بل كانت ترجمات سيريانية، أي بلغة النخبة المسيحية في بلاد الهلال الخصيب. 2

ولكي نكوّن فكرة عن دور اللغة السريانية بوصفها ناقلا أول للطب اليوناني، من المهم التذكير بأنه وفي نهاية القرن الثامن وبداية التاسع الميلاديين، تُرجمت خمسة وأربعون رسالة من رسائل

جالينوس إلى هذه اللغة، وجزء كبير منها تولى ترجمته "أيوب الرهاوي" ثم أُستؤنفت هذه العملية على نحو أوسع من قبل "حنين بن إسحق" الذي ترجم أو أعاد ترجمة أربعة وتسعين مصنفا طبيا لجالينوس، وإلى اللغة السريانية دائما.

إن انتشار اللغة العربية، واستعمالها المتنامي في الدواوين والحياة اليومية، هما اللذان يسرا بالتدريج تعريب التعليم الطبي، مستثيرين على هذا النحو طلبات جديدة في حقل الترجمة، وعلى الخصوص ترجمة الأعمال الطبية المتاحة، إما من اللغة السريانية أو من اللغة اليونانية مباشرة. لقد أُنجزت هذه العملية، في المقام الأول، من قبل "حنين بن إسحق" وتلامذته، واستأنفها بعض معاصريهم. وهو ما سمح بوضع القسم الأكبر من كتب جالينوس وأبقراط الطبية رهن إشارة الأطباء الممارسين والطلاب المسلمين، وهذه المرة باللغة العربية. ويجب أن نضيف إلى هذين المتنين بعض الأعمال الهندية المترجمة من اللغة السنسكريتية، وأشهرها أعمال الطبيب "كنكا" (من القرنين الأول والثاني الميلاديين) والطبيب "سسرتا" الذي عاش في القرن الثاني الميلادي.3

2. وصف الحالة العامة للطب الإسلامي

انطلاقا من الإرث المتعدد اليوناني والسيريالي الذيأشرنا إليه في العنصر السابق، انبثق شيئا فشيئا تقليد طبي إسلامي جديد، معتمدا على العلم القديم، ومعمقا إياه ومتوسعا فيه، قبل أن ينخرط في وقت لاحق مرحلة الإبداع. ففي بدايته، كان الطب الإسلامي مقتصرا على مركز الدولة، وتحديدا في دمشق وبغداد، وفي هذا المركز شهد اندفاعاته الأولى وتحددت توجهاته الأساسية، مثل هيمنة تعاليم جالينوس وأبرقاط، رافقها تطور طب المستشفيات وبناء المشافي، إنشاء مكتبة طبية إسلامية عامة و متخصصة في الوقت نفسه. وفي ظرف بضعة عقود، ظهرت جماعة طبية مسلمة قوية و متراتبة، إذ لم يكن عدد الأطباء الكبار، خلال الفترة السابقة على القرن العاشر الميلادي وحدها، يقل عن الثلاثين. لكن ابتداء من هذه الفترة، شرعت حواضر أخرى في منافسة عاصمة الإمبراطورية، مثل القيروان والقاهرة و قرطبة، وبعض مدن أسيا الوسطى مثل شيراز والري. وفي هذه المدينة الأخيرة أي مدينة ري، وعند نهاية القرن التاسع الميلادي، نشأ وتعلم الطبيب "أبو بكر الرازي" والذي دشّنت مصنفاته الأولى وطرائقه الإكلينيكية المبتكرة سبلا جديدة

في التقليد الطبي الإسلامي. ولم تستطع أعمال اللاحقين للرازي منافسة أعماله في المجال الإكلينيكي، لكنها ذهبت بعيدا في مجال التأليف، باستلهام ما كان قد أنجزه الرازي نفسه، و أحيانا نقده.

أما المرحلة التالية في وضع الطب الإسلامي، والتي بدأت في القرن الثاني عشر الميلادي، فهي مرحلة الاستيعاب وتدريس الموسوعات الطبية التي ذكرنا، مع نشر نوعين من المصنفات متعارضين من حيث طبيعتهما كليا. يشمل النوع الأول عدة دراسات أحادية متخصصة، مثل تلك التي تكرّست للجراحة أو لطب العيون. أما النوع الثاني، والذي يعد أكثر أهمية من الناحية الكمية، فيتشكل من تلخيصات وشروح وافرة، والتي لم تكن مجرد تكرارات مختصرة وميسرة للعلوم الطبية التي تم قبولها بشكل نهائي. بل شرح وتفسيرا متعمقا، مثلما كان الشأن مثلا مع كتاب "شرح تشريح القانون" لعلاء الدين بن النفيس، وهو طبيب من القاهرة عاش في القرن الثالث عشر الميلادي، وفي كتابه المذكور شُرحت الدورة الرئوية لأول مرة في التاريخ. 4

وتعد هذه الفترة كذلك هي فترة انتشار طب المستشفيات. ويجب أن نوضح أن فكرة المستشفى قد فرضت نفسها في وقت مبكر نسبيا. ذلك لأنه بواعزٍ من الواجب الديني الذي يفرض على المؤمن مداواة أي شخص مريض أيما كانت منزلته في المجتمع، انبرت طائفة من ذوي السلطة ومن الأطباء ابتداءً من القرن التاسع ميلادي، لوضع اللبنات الأولى لسياسة صحية متكملة، إذ تنسب المبادرة في هذا الشأن إلى الخليفة هارون الرشيد الذي حكم ما بين 786م إلى 809م، والذي شيد أول مستشفى في بغداد وشيّد مستشفى ثانٍ سنة 979م. وفي المجموع، استفادت عاصمة الخلافة من سبعة مستشفيات وعملت عشرات المستشفيات الأخرى في حواضر الأقاليم، مثل دمشق والقيروان ومراكش وغرناطة في الأندلس، وعلى الخصوص القاهرة التي أحصت أكثر من خمسة بيهارستانات، كما كانت تسمى المستشفيات آنذاك. 5

و فيما يتعلق بالطب الممارس في هذه المؤسسات، تسمح لنا الشهادات العديدة التي وصلت إلينا بالقول بأنه كان متنوعا و رفيع المستوى، بالمقارنة طبعا مع ما كان يمارس في الفترة نفسها خرج بلاد الإسلام. كان كل مستشفى يملك عددا من الأقسام (الطب العام، طب العيون،

التوليد...إلخ) مع وجود طبيب متخصص على رأس كل قسم. كما كان يشتمل على صيدلية يتزود منها المرضى بالأدوية مجانا، مصحوبين بوصفة طبية صادرة عن الطبيب المعالج. و كانت بعض المستشفيات تشتمل على وحدة لاستقبال المرضى العقليين. و في مستشفيات أخرى، كانت تجرى عمليات جراحية 6

3. أهم الأطباء المسلمين:

يعتبر الطبيب الرازي (854-925) أول طبيب مسلم معروف في الغرب، إذ كتب أعمالا مهمة في عدة مواضيع إلى جانب الطب، كما كان أول من ترك وصفا دقيقا لداء الجدري، الذي كان مرضا يبعث على الخوف الشديد وقتها، والذي كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى قتل ضحاياه أو يخلف في جلد من ينجو منه بقعا صغيرة لا تزول.

كما يعد ابن سينا (980-1037) الطبيب المسلم الأكثر تأثيرا، ومثل العديد من العلماء المسلمين البارزين الآخرين، فقد كان منشغلا في العديد من المجالات ليس الطب فحسب، بل أيضا الفلسفة و الرياضيات و الفيزياء. و بصفته عالما، طوّر ابن سينا آراء أرسطو في الضوء، وصحح آراء جالينوس في عدد من المواضيع. 7

وقد كان كتابه "القانون في الطب" من أولى الكتب في اللغة العربية التي ترجمت إلى اللاتينية، وكانت تستخدم ككتاب منهجي في كليات الطب الأوروبية لما يقرب من 400 عام. و ما يزال يستخدم في بعض الدول الإسلامية الحديثة، التي من المؤسف إنها متخلفة الآن.

ولأكثر من 300 سنة، تم إنجاز أهم الأعمال العلمية الطبية في البلدان الإسلامية. و بينما كانت أوروبا تغط في نومها، كان الشرق الأوسط المسلم (و إسبانيا الإسلامية) يشهد ازدهارا في الحركة العلمية الطبية. وكانت أهم الأماكن لتلك الحركة تشمل بغداد و دمشق و القاهرة و قرطبة (في إسبانيا). تشترك جميع هذه المدن في سمة واحدة: وهي الحكام المستنيرون الذين قيموا و مولوا الأبحاث، و كانوا متسامحين مع العلماء من جميع الأديان. وهكذا، ساهم المسيحيون و اليهود و كذلك المسلمون في هذه الحركة الطبية. لم يكن جميع الحكام المسلمين سعداء للحصول

على المعرفة من مصادر متعددة، فقد كان يعتقد بعضهم أن القرآن احتوى على كل ما يحتاج الشخص إلى معرفته. 8

قائمة المراجع المستعملة حسب ترتيب ظهورها:

1. ويليام بينوم: مختصر تاريخ العالم، دار الكتب العلمية، بغداد، 2018، ص 62
2. دينيس أليكساندروفيتش تشيكالوف: تاريخ الثقافة العالمية، مشروع كلمة للترجمة، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، 2014، ص 177
3. أحمد جبار: العلوم الإسلامية في عصرها الذهبي، دار صفحة سبعة للنشر، الرياض، 2021، ص 87
4. أحمد جبار، مرجع سبق ذكره، ص 88
5. أحمد جبار، مرجع سبق ذكره، ص 90
6. أحمد جبار، مرجع سبق ذكره، ص 91
7. أحمد جبار، مرجع سبق ذكره، ص 92